الطفولة المستعادة - الحياة من وراء ظهر الموت

شوقي بزيع

حين هبط آدم من الجنّة كان يعلم أنه يخسر فردوس الواقع ليربح فردوس الذاكرة. فالجنّة لم يُقدَّر لها أن تكون بهذا البهاء لو لم تصبح جنّة مفقودة. أجمل ثمار الجنّة ليست التفّاحة بل الحنين. كان على آدم أن يغادر جنّته لكي يحتفظ بها نقيّة وطازجة في أقصى مكان من وجدانه. والشيطان الذي ظنَّ أنه نجح في إقصاء آدم عن جنّته المتحقّقة إنّما كان ينقل الجنّة من أرض الواقع إلى سماء الحلم وليس العكس. فما الذي كان آدم سيفعله بجنّته تلك، سوى أن يذرعها آلاف المرّات مستسلماً للعادة والتكرار، منتظراً أن يخرج ذات يوم من جحيمه المكسوّ بالأشجار المتشابهة والأغاريد المملّة؟

الشيطان وحده هو الذي حوّل آدم من بستاني عجوز إلى شاعر مسكون بالمغامرة. ولم يخطئ العرب كثيراً حين نسبوا الشعر إلى الشيطان وجعلوه بالنسبة إلى الشاعر بمثابة الوحي من النبي. ذلك أن الجنّة الحقيقيّة هي تلك التي لا نسعى إليها بالقدمين بل بالرأس؛ جنّة الوساوس والرؤى والأخيلة التي تترجّح بين الفقدان والوعد. بين هذين الحدّين تقع الكتابة وتفتح شقاء العقل على نعيم يظلّ دائماً قيد الإنجاز، كما يعبّر أبو الطيّب المتنبّي.

منذ لحظة الخروج تلك والإنسان يترجّح بين الأمام والوراء: بين قدمين تحثّانه باتّجاه الموت وقلب تعصف به دائماً رياح الجنّة التي تهبّ من جهة البدايات. وهو لا يملك بينهما سوى وقفات عابرة على مفارق العمر. كل ما يمضي يستحيل إلى جنّة مفقودة على دروب الشقاء. وحين أوقف امرؤ القيس حصانه على طريق الروم كان يرى جنّته في بقايا الحجارة السوداء ولمعان الذكريات التي تلوح له من بعيد قبل ان تضيع في الدخان. وإذا كان امرؤ القيس قد أسّس عبر وقفته تلك تاريخاً كاملاً من الوقوف على أطلال الحجارة المسكونة بعبق الذكريات، فإن تميم بن مقبل كان يدرك استحالة العودة إلى الوراء فصرخ من أعماق روحه: «ما أطيب العيش لو أنّ الفتى حجر»، متقدّماً بذلك مئات الأعوام عن صرخة الفرنسي آلان بوسكيه: «إنّها لسعادة أن نكون حجراً!».

وما دام المرء ليس حجراً فهو لا يستطيع إلاّ أن يكون فنّاناً لكي يتذكّر. فمنذ أن نغادر طفولاتنا (فراديسنا المفقودة) يبدو أننا لا نفعل شيئاً سوى محاولة استعادتها بالفن والشعر. سُمّي الإنسان إنساناً ليتمكّن من النسيان ولكنه لم يفعل. وهو بعد سنّ ما لا يجد ما يصنعه بأيامه سوى التنقيب عن تراب الماضي بحثاً عن ذهب الطفولة وغبارها المدفون. الطفولة ليست طرف العمر بل عاصمته. وليس الصبا الأول سوى ضاحية من ضواحي الطفولة. إنّه سياج الأحلام التي لم تنطفئ بعد، وحزام الحياة الفاصل بين الفراديس والفراديس المستعادة. لذلك شكّل هذان الزمنان متتالياً وجدانياً لحالات الكتابة المثلى. أذكر ذلك اليوم من نيسان عام ١٩٧٥. كنت أحضر عرساً في قانا الخليل. كان إيقاع أرجل الراقصين والراقصات ينظّم المشهد والقصيدة في تآلف قلَّ نظيره، حين فقأ الباص المدروز بالرصاص عين الرمّانة المغرورقة بالفرح، قبل أن تتعهّد الحرب ما تبقّى من العرس وتدقّ بكفّين من فولاذ درابك النحيب المتواصل.

يومها أطلق محمد العبد الله نداءه الشهير: على نساء لبنان أن يزددن جمالاً! وكان يلزم نساءنا الكثير من السواد لكي يجمّل ثلج الموت الذي حوّلهنّ من عاشقات محترفات إلى ثكالى ونائحات. ولم يفت حسن عبد الله أن يعصب جبين النصّ بقشّ العزاء فأعلن أن «أجمل الأمّهات هي تلك التي انتظرت ابنها وعاد.. مستشهداً!» وغنّى مرسيل خليفة نصوص الشاعرين لكي يردم بصوته الشجيّ المسافة بين سواد الموت وبياض النصّ، وظلّت الأمّهات يتباهين بجمالهنّ حتّى لم يبق من أبنائهنّ أحد. ولاذ حسن عبد الله بالصمت قبل اثنتي عشرة سنة. بينما انتهى محمد العبد الله محدودب الظهر واليقين في ديوانه **وقت لزينتها** فوق جثّتي صديقيه مهدي عامل وناجي العلي المعفّرتين بالحبر والدم. أمّا خليل حاوي فلم يكن ينقصه سوى اجتياح واحد لكي يسدّد الطلقة الأخيرة إلى أمّ رأسه الذي أصبح بالنسبة إليه أجمل الأمّهات وأكثرهنّ حناناً.

كانت تلزم محمد علي شمس الدين سنوات أكثر عنفاً وطبول أكثر ضجيجاً لكي يصرخ بأعلى دمه «أما آن للرقص أن ينتهي»، حتّى إذا ما انتهى الرقص راح يبحث في قصائده اللاحقة عن بيت أكثر أماناً من بيت أبي سفيان، عن بيت الطفولة المسكون بغناء جدّه القديم.

دخلت الحرب فتدحرج الشعراء بعيداً وراء كرة أعمارهم. لا شكّ بأنّهم كانوا محتاجين إلى نار ما لكي يُنضجوا فوقها فاكهة أشواقهم. لكنّ الحرب لم تكتفِ بإنضاج فاكهة الشعر والفن لديهم، بل دفعت بنيرانها عالياً نحو طائرة أرواحهم التي سقطت حطاماً على أرض الرغبات الموؤودة، ولم يعثر في صندوقها إلاّ على عدد من الروايات والقصائد الخائفة على حدّ تعبير جودت فخر الدين.

كأنّ الحرب سرطان الزمن الذي يشقّ خلايا الحياة ويشطرها بسيفه المريض إلى نصفين. هكذا باعدت الحرب بيننا وبين أحلامنا. أطفأت الحاضر، وأحكمت إغلاق المستقبل، وفتحت باباً

وحيداً على الماضي الذي يبدو، كما يرى توماس مان، بعيداً إلى الحدّ الذي لا نصدّق معه بأننا نحن الذين عشنا تلك الطفولات ومشينا تلك الدروب وابتكرنا ذلك القمر. تحوّلت الحرب إلى هاوية، بل إلى هوى سحيقة تُباعد بين أجسادنا المقيمة وأرواحنا الراحلة.

هكذا شخنا قبل الأوان. ولم يعد أمامنا سوى تذكّر ثغور حبيباتنا فوق شفار السيوف متواصلين مع جسد عنترة المترنّح بين الحياة والموت ومع حصان امرئ القيس المندفع مثل حجر يهبط من علياء الصبا إلى سفوح الشيخوخة.

لقد ذبلنا باكراً واندفع العديد منّا ممّن لم يبلغوا الخامسة والعشرين إلى كتابة مذكّراتهم وسيرهم الشخصية، كيحيى جابر وزاهي وهبي ويوسف بزي؛ أمّا بعض تحقيقات المجلاّت فلم يفتها ذلك الانحدار السريع نحو الهرم فراحت تطرح علينا أسئلة من نوع: أي ميتة تفضّل، وماذا تكتب في وصيتك؟

في زمن كهذا لا يظلّ أمام الفن سوى استعادة فردوسه الاحتياطي الوحيد المبتلّ بماء الماضي وهواء البدايات، لا بما هو ارتداد ورجعة وقنوط بل باعتباره المكان الوحيد الذي يعصم من الموت ويحمي من التفتّت. والشعراء الذين نجوا هم أولئك الذين لم يختنقوا ببراءة ارتطامهم بالعالم ولم يبيعوا مياه ولاداتهم في سوق النخاسة الشعرية.

ولم نكن بحاجة إلى حرب لكي نؤكّد على القيم التي تؤصّل الكتابة، وتربط صاحبها بروائح العالم الذي ينتمي إليه وبذلك المجرى الضروري الذي يحمي عصب الشعر وينظّم فوضاه.

لقد أعاد بدر شاكر السيّاب تأهيل المنازل التي غادرها الشعراء ولم يجدوا طريقهم إليها فيما بعد. كان يعتصر طفولته وينقّطها في عيني قلمه ليرى من خلالها صورة جيكور الماثلة أمامه كفردوس يجري من تحته نهر بويب الصغير. لقد فتح السيّاب الأبواب الخلفيّة للكتابة حين شنَّ عليه المرض حربه الأخرى في ساحة مكشوفة على الموت وحده. فتح تلك الأبواب التي يقول عنها رامون لاسيرنا «بأنها تنفتح على الريف لتبدو وكأنّها تمنح حرية من وراء ظهر العالم.» ونادى أدونيس على الطفل الذي يقبع في زاوية روحه المظلمة لكي يخرج إلى الضوء من وراء جبال قصابين المثلومة بالنعاس.

وربط سعدي يوسف، المنفي أبداً، طفولته بخيط الشعر وراح يطيّرها هنا وهناك، لتحطّ فوق حطب مشتعل دائماً بالحنين إلى الأمكنة المفقودة.

وحفر أنسي الحاج في تراب مشبوه اليقين بحثاً عن لغة لا تسكن إلاّ في مناجم البدايات وكنائسها المهجورة، معتبراً بأن الطفولة ليست سوى السحر الغامض للأيام المطمورة.

أمّا شوقي أبي شقرا فقد أعفى نفسه من التذكّر لأنه لم يسمح للطفولة أن تغادره في الأصل، بل تركها تكبر معه يوماً على صدر يوم، على حدّ قول محمود درويش، ناظراً إلى العالم بعيني من لم يغادر السادسة وهو في الستين. لذلك جاء شعره شبيهاً برسوم الأطفال نفسها لا الرسوم التي يرسمها الكبار في يوم الطفل. لقد قتل المسافة بين الأشياء وفكرتنا عنها، محتفلاً باللغة في ذاتها لا بما ترمي إليه، مصداقاً لقول فرانس هيلينز «ليست الطفولة شيئاً يموت فينا وينحلّ ما إن تنهي دورتها. إنها ليست ذكرى، إنها الكنز الأكثر حياة. وهي تستمر بإغنائنا رغماً عنّا، كجسد في جسدنا الخاص، كدم جديد في الدم القديم.»

وإذا كان عباس بيضون قد أعلن في «خلاء هذا القدح» بأنه «لم يعد ماء بيننا وبين القصب»، فلقد خسر الماء ليربح الحنين الذي هو وحده ماء الكتابة ونارها.

إن نار العالم لم تخبُ بعد. ثمّة حرائق كافية لإشعال ما تبقّى من قشّ الروح. والذين خبت نارهم لا يبحثون عن مصادرها في المكان المناسب بل يلجأون بدلاً من ذلك إلى خطاب العنف ونصّ الإرهاب و«الكتابة عن قتل» كما عبّر أحد الشعراء. يكفي أن يشير الشعر إلى قرية لكي يكرهوها أو إلى نهر لكي يحرقوه. ما أحوجنا نحن وإياهم للعودة من حرب الشوارع إلى البيوت المفتوحة من وراء ظهر العالم على حدائق أكثر أماناً من جدران الحرب المخلّعة. البيوت التي مجّدها جودت فخر الدين وبسّام حجّار في مجموعتيهما الأخيرتين ونمجّدها نحن في طريق العودة من الوطن الساحة إلى الوطن البيت:

تواصوْا إذن بالبيوت
احملوها، كما السلحفاةُ، على ظهركم
أين كنتمْ، وأنّى حللتمْ
ففي ظلّها لن تضلّوا الطريق إلى برِّ أنفسكم
ولن تجدوا في صقيع شتاءاتكم
ما يوازي الركون إلى صخرة العائلهْ
وحرير السكوت
تواصوْا، إذن، بالبيوت
استديروا، ولو مرّة، نحوها
ثمّ حثّوا الخطى
نحو بيت الحياة الذي لا يموت.